فى تاريخ الادب التركى

للأستاذ عطا الله ترزى باشى المحامى

فى رسمنا أن نقسم تاريخ الأدب التركى إلى عصرين أساسيين: جاهلى وإسلامى ، وأن نقسم كذلك كلا من هذين العصرين إلى أدوار مختلفة ..

ورأينا أن نتحدث فى هذا المقال عن تاريخ الأدب التركى منذ نشأته حتى تأسيس الدولة العثمانية بايجاز

يتكون العصر الجاهلى من دورين هامين :

(أولا) دور الأدب المظلم ، ولا نعرف عنه أكثر مما يرويه لنا المؤرخون من « مناقب الترك » المعروفة بـ (الدستانين) (١) . وهى تتضمن بعض القصص والروايات التاريخية عن نشأة الأتراك وقيامهم بتأسيس الدويلات . وتحتوى كذلك على تراجم بعض الملوك والأمراء والقواد . وأشهر هذه الدستانين دستان « أوغوز خان » (٢) ودستان « بوزقورت » ودستان « شو » وغيرها(٣) . ولم يعرف الترك فى هذا الدور الكتابة وإنما انتقلت إلينا هذه الدستانين من بعض الآثار التاريخية القديمة

(ثانيا) دور الأدب المكتوب : وشاع فى هذا الدور استعمال الكتابة بين الترك . والكتابات الأولى التى عثرت عليها فى التاريخ هى التى اكتشفها العلماء بالقرب من مدينة (طورفان) فى الشمال الشرقى من (منغوليا) على ضفة نهر (أورخون) . فقد وجدت فى هذه النواحى ألواح من الرخام مثبتة فى الأرض نقشت عليها بعض الكتابات . وكان أهمها ثلاث كتابات تعرف بـ « تونيو قوق » و « كول تكين » و « بيلكه قاغا » . ويرجع تاريخ الكتابة الأولى إلى سنة ٧٢٠ م والثانية إلى سنة ٧٣٢ م والثالثة إلى سنة ٧٣٥ . وقد ثبتت هذه الألواح التى تبحث عن حروب الترك مع الصينيين فى جانب زعماء تولوا عرش الدولة التركية المسماة بـ « كوك تورك »

ويعتبر « بيلكه تونيوقوق » أول أديب عرف فى تاريخ الأدب التركى على الإطلاق

ولقد أشار إلى وجود هذه الكتابات فى أول الأمر المؤرخ الإيلخانى المعروف (جوينى) وذلك فى القرن الميلادى الثالث عشر . وذكرها أيضا الدكتور الألمانى دانيل مسرشميد « Daneil Messershmidt » حين رآها (سنة ١٧٢١م) أثناء قيامه برحلات فى هذه الأنحاء وسماها بالكتابات الطلسمية

ويعود الفضل فى أمر اكتشافها إلى العالم الدانيماركى طومسن « Thomsen » فقد وفق لأول مرة فى ٢٥ / ١١ / ١٨٩٣ إلى قراءة كلمات (ترك ، تنكرى ، كول تكين) . وتمكن هذا المستشرق بعد ذلك من حل رموز الكتابة وقراءتها بكاملها . وكذلك استطاع من بعده العالم الألمانى الشهير رودلف « Rodolf »

وهى أشمل . والإسلام أنزله اللطيف الخبير الذى يعلم من خلق ، ليكون سلاما لكل نفس ، وقواما لكل عمل ، ونظاما لكل جماعة . ودنياه العامة التى يحكمها وينظمها لابد أن يكون فيها العربى والأعجمى والذمى والوثنى ، فلا جرم أن الله يدبر بحكمته الأمر على أن يعيش هؤلاء جميعا سعداء فى ظله . وماذا نخاف من (الإخوان) وهم يتلون كل يوم قوله تعالى :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » ؟

فقال صديق وقد نقع ما قلت نفسه :

إذا كان رأى الإسلام فى المخالفين هذا الرأى ، وكان (الاخوان) مسلمين بهذا المعنى ، فإنا نرجو أن يكون أساس المصريين جميعا فى البناء هذا الأساس : إيمان خالص بالله وعمل صالح للناس !

حسن الزيات

(١) جمع دستان بمعنى الملحمة

(٢) وقد روى لنا هذا الدستان الوزير رشيد الدين فى كتابه « جامع التواريخ » عن نسخة قديمة من كتاب كان لديه . انظر لهذا الدستان البروفيسور فؤاد كوبرلى عن نسخة قديمة فى كتابه تاريخ الأدب التركى (المجلد الأول)

(٣) أنظر الأستاذ نهاد سامى : تاريخ الأدب التركى المصور ص ١١ ـ ٢٠

أن يترجمها ترجمة صحيحة (٤)

وفي القرن التاسع من الميلاد أراد الأتراك ، وقد هجروا استعمال هذه الكتابة ، أن يتعلموا لونا جديدا من الكتابة تسمى بالكتابة الأويغورية . وقد انتقل إلينا كثير من الكتب التركية القديمة المدونة بهذه الكتابة ، كانت موضع دراسة العلماء والباحثين ، منها كتاب « Turrkische turfan,txt » وقد حققه العالمان بنج (Bang) وفون جربيان (Von Garbian) . ومنها كتاب (المتون المانية التركية) نشره فون لكك (Von Le Coq) كتاب جمع بين دفتيه كثيرا من العقائد والأدعية في المذهب وهو المانى (٥) الذي انتشر بين الترك في ذلك العصر . ومنها كتب نشرت من قبل أكاديمية العلوم النمساوية بعنوان (Vygurica) وأخرى ذات قيمة أدبية كبرى عثرت عليها في مدينة « طورفان »

وهنا ينتهي العصر الجاهلي من الأدب التركي وبانتهائه تضمحل الكتابات القديمة شيئا فشيئا حتى تنقرض وتحل محلها الكتابة الإسلامية بالتدريج

العصر الإسلامي :

إن هذا العصر في الأدب التركي يتكون من أدوار مختلفة تتبع في تقسيمها ما يلي :

صدر الإسلام : وجد الأتراك ، حين احتكوا بالمسلمين في القرن الميلادي الثامن ، أن هذا الدين يقوم على نظام اجتماعي متين ، ويستند على أسس أخلاقية تتشابه مع قواعد العرف والعادات السائدة بينهم . فاعتنقوه على عجل . وقد انتشر الدين الإسلامي بين الأتراك انتشارا عظيما حتى أسلمت الأقوام التركية الساكنة في البلاد المتاخمة لحدود الصين جماعات ووحدانا . ولم يبق منهم غير أفراد قلائل لم يسعدهم الحظ في الاتصال بالمسلمين

ولقد أفاد الترك من الإسلام إفادة جلى . فنظموا حياتهم الاجتماعية وفقا لاعتبارات هذا الدين الجديد . فانتقلوا من طور البداوة إلى طور الحضارة ، فبدأوا يسكنون المدن وقد اعتزلوا الحياة القبلية إذ رحلوا بعد الإسلام إلى الديار القريبة من مراكز الخلافة الإسلامية

ولم يؤثر في الحياة الأدبية عند الأتراك دين من الأديان التي اعتنقوها قبلا بقدر ما أثر فيها الدين الإسلامي الحنيف . ويتطلب دراسة هذا التأثير بنوعيه الإيجابي والسلبي تفصيلا وتمحيصا ، وقد أوجزناها الآن في سطور عسى أن نجد فرصة أخرى نعالج فيها هذا الموضوع بالشرح والتمحيص

لقد كان أثر الإسلام في الأدب التركي أعظم من أثره في الأدب العربي كما يتبين ذلك من الآتي :

غير الإسلام من غير شك مجرى الحياة الأدبية عند الأتراك تغييرا عظيما . فأخرج الأدب التركي من عزلته الجاهلية وأدخله في قاعة الآداب الشرقية الحية . فنرى منذ ذلك اليوم ازدهارا كبيرا ونموا متزايدا في النتاج الأدبي عند الترك . ويندر أن نجد آثارا خلفها الترك من عصر جاهليتهم ، إذ أن غالب الآثار التي أنتجها رجال الفكر التركي منشؤها هذا الدين القيم الذي مهد السبيل أمام المفكرين وأنار لهم الطريق، طريق الرقي في مدارج العلم والثقافة

وقد كان من آثار هذا الدين اقتباس الترك الأفكار الأدبية من خزائن الآداب الإسلامية الأخرى وإضافتها إلى ثروتهم

وكان الأدب التركي في الجاهلية أدبا فرديا غير متسم بطابع الأدب الجماعي، ونعني بالأول ذلك اللون من الأدب الشقت شمله والمجهول مؤلفه، الصادر عن عقلية ضعيفة غير متكاملة . فما كان من الإسلام إلا أن وحد اتجاه الأدباء في أساسه توحيدا كاملا

ولا ينكر ما لهذا الدين من تأثير سلبي في الأدب التركي من بعض الوجوه ، كاللغة . فقد كانت اللغة التركية خالصة في أصلها، خالية من الألفاظ الأجنبية . وبعد نشوء العلاقة الدينية بين الأتراك وبين غيرهم من الأقوام بدأت الألفاظ الغريبة من فارسية وعربية تتسرب إلى هذه اللغة بالتدريج حتى شاع بين الأتراك استعمال بعض القواعد الأجنبية في الكتابة استعمالا أذهب من اللغة التركية رونقها

وقد تأثر الكتاب الأتراك بلغة القرآن تأثرا بليغا حتى حدا

(٤) راجع لدراسة هذه الكتابات الأستاذ نجيب بك عاصم مدرس اللغات الشرقية في الأستانة سابقا في كتابه « قبائل الأورخون » باللغة التركية

(٥) وبالأحرى الديانة المانيكية « Manichelsm » التي نشأت بين الفرس قديما وهي تجعل إبليس في مستوى الخالق

بيعضهم إلى استعمال اللغة العربية في الكتابة عوضا عن لغته الأصلية . وقد أنتجوا كثيرا من القوامات القيمة في هذه اللغة من بينهم فلاسفة عظام ومفكرون مشهورون . أمثال الفارابي وابن سينا والزمخشري — صاحب الكشاف ومؤلف كتاب مقدمة الأدب — كما وأن آخرين منهم انساقوا بسبب الملابسات والظروف إلى استعمال الكتابة الفارسية بدلا من التركية أمثال جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المعروف وغيره من المفكرين

التصوف في الأدب التركي :

ليس من شأننا الآن أن نتحدث عن تاريخ التصوف الإسلامي في عصوره المختلفة، وإنما وددنا أن نتطرق بإيجاز إلى النواحي الأدبية منه بقدر ما يتعلق بالموضوع

إن آثار التصوف بدأت تظهر شيئا فشيئا في الأدب التركي منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، وذلك حينما استخدم العالم المعروف الشيخ محي الدين بن العربي نظريته المعروفة « وحدة الوجود » التي كان لها الأثر البالغ في الأدب التركي طوال العصور

وقد تأثر شعراء الترك كذلك بفلسفة الجاذبية الإلهية التي كان أصحابها يؤمنون بتمثل القدرة الإلهية في النفس البشرية عن طريق الإيمان بذاته إيمانا يطرد الشرور الكامنة في النفس ، فيتجسم النور الإلهي في القلوب تجسيما يكاد يمحه الزمن في كل حين .. وكان هؤلاء الرجال يعشقون جمال الله عشقا خالصا لا يخامرهم فيه شك ولا يأخذهم منه ريب ، ولم يكن هذا العشق الإلهي في نظرهم كالحب المجازي الذي يشعر به الإنسان تجاه الآخرين ، بل كانوا يعتبرونه مودة صافية ناشئة من فرط ميلهم للوجود المطلق

ومن استطاع في رأيهم أن يتغلب على النفس الأمارة بالسوء بدافع غلاب لا يحمله إلا القليلون، واندمج في الوجود المطلق ، فقد بلغ الغاية القصوى ونال الدرجة العليا في سلك التصوف فحاز رتبة (الفناء في الله)

ولقد تظاهر كثير من شعراء الترك بهذه الفلسفة زمنا غير قليل، نذكر منهم الشاعر المعروف (نسيمي) (٦) من شعراء القرن الرابع عشر الميلادي الذي ألف ديوانا ضخما في الشعر التصوفي ، وقد اشتمل هذا الديوان على قصائد جياد في تحبيذ ما ذهب إليه الصوفي الإسلامي الكبير (الحلاج المنصور) . وكان نسيمي قد سلك مسلك الحلاج في قوله « أنا الحق » مما أثار ضجيج العلماء في عصره ، فاغتاظ منه رجال الدين وأمروا بقتله فكشطوا جلده حيا فهلك

ومنهم الشاعر الإنساني العظيم (يونس أمره) وهو أحق أن نفرد له مقالا خاصا في الرسالة ليتبين القارئ مدى قيمته الأدبية ومنزلته الممتازة بين الشعراء الصوفيين . ونكتفي اليوم بإيراد منظومة مترجمة له من قصيدة مطلعها :

برساقيدن ايجدم شراب عرشدن يوجه ميخانه مى

يقول :

تناولنا الخمر من ســـاق كانت خمارته فوق العرش
فأصبنا بالحارة السكر ، ففدينا الأرواح (٧)

حبذا هذا المجلس الذي تشوى فيه الأكباد على نار شمع وهاج تدور حوله الشمس كما تطير الفراشة حول النار

وفي هذا المجلس تنطلق صيحات « أنا الحق » من أفواه المخمورين الذين يعد أفقرهم في التصوف، في مستوى الحلاج المنصور

ثم ينهي الشاعر منظومته بخطاب يوجه إلى نفسه قائلا :

حذار من مخاطبة الجاهلين بهذا الكلام الفياض
فإنك تعلم كيف يقضي هؤلاء الوقت ..

ويلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر كنى من الإله بالساقي . وعبر بالخمر عن العشق الإلهي . كما أنه روى حرقة كبده في حب الإله بشي الكباب في مجلس الشراب

وقد انتشرت هذه الألوان من المصطلحات الصوفية بين الشعراء حتى شاع استعمال كثير من تعابير اللهو والطرب في موضع التغني بذكر الله ...

(٦) ونسيمي من السادة الكرام ولد ببغداد واندمج في مدينة حلب واسمه الحقيق (عماد الدين)

(٧) ولغيره من الشعراء انظر : فؤاد كوبريلي في مجلة بكي تورك عدد ٤ ج ١

البقية في العدد القادم

عطا الله ترزي باشي المحامي
بغداد